محاضرة حول دراسة الغرباء لهوارد بيكر

تمهيد:

يُعدّ **هوارد بيكر (Howard S. Becker)** من أبرز روّاد التفاعل الرمزي وعلم الاجتماع التفسيري، وقد شكّلت دراسته حول **الغرَباء (Outsiders)** إحدى الإسهامات السوسيولوجية الأساسية في فهم السلوك المنحرف بوصفه ظاهرة اجتماعية نسبية، لا خاصية فردية ثابتة. فقد قدّم بيكر، من خلال هذه الدراسة، منظورًا نقديًا للتفسيرات التقليدية للانحراف التي كانت تربطه بالمرض أو الخلل الشخصي، مؤكدًا أن الانحراف هو نتاج **عملية اجتماعية** تُمارَس عبر القواعد والتصنيفات التي تفرضها الجماعات المهيمنة في المجتمع.

ينطلق بيكر في دراسته من فكرة محورية مفادها أن المجتمع هو الذي يخلق الانحراف من خلال سنّ القواعد وتطبيقها، وأن الأفراد يُصبحون "غرباء" أو "منحرفين" فقط عندما تُلصق بهم هذه الصفة عبر **آلية الوصم الاجتماعي (Labeling)**. وقد اعتمد في ذلك على دراسات ميدانية نوعية، خاصة ملاحظاته حول موسيقيي الجاز ومتعاطي الماريجوانا، ليبيّن كيف تتشكل هوية الفرد المنحرف من خلال تفاعله مع الآخرين وردود أفعالهم تجاه سلوكه.

ويكتسي هذا العمل أهميته العلمية من كونه نقل الاهتمام من دراسة أفعال الأفراد إلى دراسة **ردود فعل المجتمع**، مسلطًا الضوء على علاقات القوة ودور المؤسسات الاجتماعية في تحديد ما يُعدّ سلوكًا سويًا أو منحرفًا. وعليه، تمثل دراسة *الغرَباء* مدخلًا أساسيًا لفهم الانحراف في سياقه الاجتماعي والثقافي، وتُعدّ مرجعًا نظريًا ومنهجيًا لا غنى عنه في الدراسات السوسيولوجية المعاصرة، خاصة تلك المعنية بقضايا التهميش، الإقصاء الاجتماعي، وبناء الهوية.

نظرية الوصم الاجتماعي:

كانت هذه النظرية من النظريات القريبة جدا من أفكار غوفمان وهي نظرية الوصم الاجتماعي labeling theory" والتي ظهرت في منتصف الستينيات من القرن الماضي في الواليات المتحدة الأمريكية في لحظة نزاع سياسي ثقافي كبير حيث وضع أبرز منظري النظرية دور الهيئات الحكومية والعمليات الاجتماعية بشكل عام في حقل الانحراف.

والجريمة في سياق دراسة الفعل الاجتماعي تعد نظرية هوارد بيكر والذي اعتبر غالبا ما يذكر اسمه كمؤسس لهذه النظرية محط الاهتمام في نظريات الجريمة والانحراف " أن مسلك الباحث يتعين دائما أن يذهب أبعد مما توحي له التمظهرات الأتية للحقيقة ، أي أن نهج الباحث هو جهد يظهر القناع الذي يكون خلف الستار الذي نراه و في هذا اتجه بيكر إلى دراسة الانحراف او الجنوح deviance أظهر أن الجماعات البشرية تنشئ ما يسمى بالانحراف بتطبيق مجموعة من القواعد على الأفراد الذين يقعون خارج هذه القواعد ثم نتيجة لذلك تتم تسميتهم بالغرباء outsiders. **(عبد الرحمان عزي، 2003، صفحة 34)**

انطلاقا من النقد الذي وجهه قام بيكر بتعريف الانحراف والمنحرفين " فذهب إلى أن الجماعات الاجتماعية تخلف الانحراف بواسطة صنع القواعد على من ينتهكونها ويصبح بالإمكان تسميتهم بالخارجين عنها، ولذلك فالانحراف لا يعتبر خاصية يقوم بها شخص مذنب فالمنحرف هو الشخص الذي طبقت عليه هذه التسمية بنجاح والسلوك الانحرافي وهو السلوك الذي أعطاه الناس التسمية هذا الاسم. **(ابراهيم عثمان، 1999، صفحة 52)**

قام هوارد بيكر المولود سنة 1928 بدراسة سوسيولوجية ما بين 1946-1951في جامعة شيغاكو و في الوقت نفسه كان عازفا للبيانو في فرقة الجاز و كان أساتذته من الممثلين الرئيسين للمدرسة المسماة مدرسة شيغاكو ، هربرت بلومر ، إرنست بورجسين ...أنجز أعماله الأولى عن سوسيولوجيا العمل و المهن و تناولت سلوك عازفي موسيقى الجاز و عمل المدرسات في شيغاكو و سيرهن المهني و ابتداء من الخمسينات انتقل إلى

ميدان سوسيولوجيا الجنوح و تنطلق هذه النظرية من افتراض : أن الناس (يعرفون أنفسهم و يتصرفون بطرق تعكس كيفية تصنيف الأخرين لهم) و هي ترتبط أكثر بعلم الجريمة و الانحراف كيف أن العمليات الاجتماعية للوصم و تناول شخص ما على أنه منحرف جنائيا تعزز في الواقع السلوك المنحرف و تحمل تداعيات سلبية على ذلك الشخص لان الأخرين يكونوا متحيزين ضدهم بسبب هذا الوصم.

يركّز بيكر على دور الجماعات الاجتماعية والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية في **وضع القواعد** وفرضها، مبرزًا أن من يُخالف هذه القواعد لا يُعدّ منحرفًا إلا إذا تم **وصمه اجتماعيًا** .ويُظهر من خلال دراساته الميدانية النوعية، خاصة حول موسيقيي الجاز ومتعاطي الماريجوانا، كيف تتكوّن هوية الفرد المنحرف تدريجيًا عبر عملية التسمية الاجتماعية، وما يترتب عنها من تهميش وإقصاء اجتماعي.

خلاصة:

تبرز الدراسة أن الانحراف ظاهرة **نسبية** تختلف باختلاف السياق الاجتماعي والثقافي، وأن ما يُعدّ سلوكًا منحرفًا في مجتمع ما قد يكون مقبولًا في مجتمع آخر. ويخلص بيكر إلى أن الاهتمام يجب أن ينصبّ على **ردود فعل المجتمع** وآليات الضبط الاجتماعي أكثر من التركيز على خصائص الأفراد أنفسهم.

وتكمن أهمية دراسة *الغرَباء* في إسهامها في تأسيس **نظرية الوصم الاجتماعي**، وفي تحويل مسار البحث السوسيولوجي نحو فهم علاقات القوة، وآليات الإقصاء، وبناء الهوية المنحرفة، مما يجعلها مرجعًا أساسيًا في علم اجتماع الانحراف والدراسات الاجتماعية المعاصرة.